المحاضرة الثامنة (8): السرد العجائبي.

تتنوّع الخطابات الأدبية، كما تتنوع أجناس الأدب، بل ويمكن أن نجد خطابات متعددة حتّى في النصّ الواحد، فمثلا إذا برزت النزعة الذاتية في النص كان الخطاب الأدبي رومنطقيا، وإذا كانت الجماعة مركز اهتمام الكاتب، كان الخطاب الأدبي واقعيا، وإذا كان التصوير موحيا غير مباشر كان الخطاب رمزيا، أما إذا ترك الخطابُ القارئَ/المتلقي محتارا بين تصديق وتكذيب متردّدا بين الحقيقة والخيال، فالخطاب هنا من النوع العجائبي.

1/ العجائبي، المصطلح والمفهوم:

نكون أمام سرد من النوع العجائبي عندما يعكف الراوي على نقل أحداث خارقة للعادة أو مفارقة للمألوف، ولذلك اعتبر "تزفيتان تودوروف" العجائبي جنسا دائم التلاشي، حيث يترك العجائبي مكانه للعجيب أو الغريب، وبين هذين يقيم تودوروف تمييزا فيرى ((أن الغريب يمكن أن ينفكّ لحامُه بالتأمّل، في حين أن العجيب يترك دوما فضلة "فوق طبيعية" لا يمكن أبدا التوصل إلى تفسيرها بشيء ما خلا فوق الطبيعي)).

يترك العجائبي المجال للغريب عندما يجد المتلقي أو المروى له تفسيرا عقليا للظاهرة الخارقة التي تعترض سبيله، بحيث تؤوّل كلّ الظواهر غير المألوفة إلى ما يجعلها مقبولة عقلا. أما إذا انقطع المتلقي عن التردّد واطمأنّ إلى التفسير الخارق للظاهرة، فالعجائبي يترك مكانه للعجيب . كما أنّ العجيب يغيّر "طبيعته ووظيفته تبعا لما إذا كان المتلقي مؤمنا أو غير مؤمن، فالعجيب في منظور المؤمن هو تجلّي عقل أسمى ومتعالي وسرٍّ مغلق **(هو ما يسمّيه المسلمون: الغيب)."**

2/ تجليات العجائبي في التراث السردي العربي:

حفل التراث السردي العربي بهذا النوع من السرد واتخذ أشكالا عديدة، حيث عرف العرب في الجاهلية الخرافات وأساطير الأولين، والسير الشعبية التي تضمنت الكثير من الأمور العجيبة والطرائف الغريبة، وهناك **"حديث خرافة"**، وخرافة "رجل من عذرة استهوته الجنّ كما تزعم العرب، مدّة ثمّ لمّا رجع أخبر بما رأى منهم فكذّبوه حتى قالوا لما لا يمكن: حديث خرافة." وفي المجال الديني يزخر القرآن الكريم وكتب الحديث النبوي (خاصّة أحاديث الإسراء والمعراج) بأخبار كثيرة يدرجها المسلمون ضمن عالم الغيب (أخبار الجنة والنار، والملائكة، عالم الجن...). كما حفلت بعض **كتب التاريخ والأخبار** بحكايات فيها من المبالغة والتعجيب، نسجها المؤرخون من مخيّلتهم أو نقلوها عن الذاكرة الشعبية بالتواتر كما هو الحال مع المسعودي في غرائب الموجودات والطبري والغرناطي.

تحفل **كتب الرحلات** بالعجائبي؛ خاصّة وأنّ الكاتب/ الراوي يؤرّخ فيها للطرائف والغرائب ويصف عوالم وشخوصا عجائبية إلى جوار تفاصيل الحياة اليومية الواقعية، شأن رحلة ابن فضلان المعروفة بـ رسالة ابن فضلان". ولعلّ الجانب الثري للخطاب العجائبي في التراث العربي يتمثّل في **مؤلفات المتصوفة** التي تندرج ضمن ما يسمى "الكرامة الصوفية" والتي يتمحور السرد فيها معجزات الشيوخ وأفعالهم الخارقة، مثلما هو الحال مع "ابن عربي" في فتوحاته المكية أو في معراجه أو ما يسمى بشطحات المتصوّفة. "الذين

ارتبطت خوارقهم بالحلم والهذيان، وبقوّة نفسانية يمكن القول بأنّها كانت تتماس رغم خصوصيّتها – من بعيد أو قريب– مع ما كان يسلكه البوذيون، وجماعات هندية أخرى."

يتجلى العجائبي أيضا في **السير الشعبية** من خلال وصف الأفعال العجيبة لأبطالها مثل ما نجد على سبيل المثال في سيرة "سيف بن ذي يزن"، بالإضافة إلى حكايات **"كليلة ودمنة"** لابن المقفّع التي جاء أغلبها على لسان الحيوانات في تعبير رمزي عن مقاصد معيّنة، ومنها ما يعتمد على الحلم والتخييل مثل: **رسالة الغفران** لأبى العلاء المعري التي تضمّنت وصفا للعالم الآخر. و**رسالة التوابع والزوابع** لابن شهيد الأندلسي وهي رحلة عجيبة إلى عالم الجنّ، كما يعدّ القصص الشعبي فضاءً رحبا للعجائبي ويتجلى ذلك بصورة واضحة في حكايات **"ألف ليلة وليلة"** من خلال وصف عوالم فوق طبيعية داخل عالم واقعي مألوف. عوالم يختلط فيها الجن (العفاريت) بالإنس، والخارق بالمألوف، خصوصا وأنّ بعض شخصياتها تتعرّض إلى التحوّل والمسخ وكلّ ذلك يوّلد –لا محالة– الحيرة والتردّد في نفس المتلقي.

3/ وظائف العجائبي في السرد العربي القديم:

يمثّل الخطاب العجائبي رحلة تنقل الشخصية أو المتلقى(أو المروى له) من فضاء واقعي مألوف إلى فضاء عجيب أو غريب مفارق للمألوف، وبناءً على ذلك يضطلع هذا الخطاب بوظائف عديدة في النص السردي، فهو بقدر ما يغري المتلقي ويشوّقه ويسلّيه، فإنّه غالبا ما يهدف إلى التحذير والإنذار، لكي لا تعود الشخصية (أو المتلقي) إلى أفكار تكون قد راودتها قبل الرحلة.

تتمثّل الوظيفة الأساسية للعجائبي في "العبرة" التي تهدف إلى ما يسمى بالتطهير، ذلك أنّ استحضار صور العالم الآخر في النص السردي (النصوص الدينية أو رسالة الغفران مثلا) من أهوال القيامة وموقف حشر وعقاب ونار جهنّم يهدف إلى التطهير، تطهير نفس الشخصية /الراوي وتخليصها من حالتها المتأزّمة، خاصة وأن وظيفة تهويل أمر جهنم تتمثل "في استئصال الداء من الإنسان فيخاف أن يحدث له ما يحدث للكفار، فتتطهّر نفسه"فيعود إلى حظيرة الإيمان، إنّه شكل من أشكال الترهيب يحرص الكاتب على وجوده في نصّه.

لقد أتاح السرد العجائبي في "ألف ليلة وليلة" للملك شهريار معرفة أشياء جديدة وبكيفية مغايرة لرؤيته ومعتقداته التي عهدها، إنه يكتشف عالما جديدا ويصير إنسانا جديدا. فقد استطاعت "شهرزاد" عن طريق الحكي أن تقنعه بالتخلّي عن أفكاره السابقة المتمثلة في الرغبة المحمومة في إبادة جنس النساء؛ حيث تطهّرت نفسه فعدل عن قتل شهرزاد كما تغيّرت أفكاره عن النساء. أمّا في حكايات المتصوّفة فإنّ العجائبي يهدف إلى إثبات المعجزة/ الكرامة للشيخ، يقتنع بها مريدوه وتلامذته فيعلو شأنه بينهم فيقدّسونه.

من وراء الفكرة والعبرة، حيث ينتصب العجيب "منقذا من الضلال" يعيد صاحبه إلى حظيرة الإيمان إذا ابتعد، ومن وراء الخوف والرعب وانفعالات حبّ الاستطلاع والمتعة

واللذة والتشويق والترويح عن النفس، والإقناع، من وراء كلّ هذا فإنّ الهدف الحقيقي للرحلة العجيبة هو الاستكشاف "والسّبر الأشمل للحقيقة الكونية".

هناك وظائف أخرى للعجيب، تتمثل في تسخيره (العجيب) لأغراض فنية ترتبط بالمضمون الفكري من جهة، وتؤكّد علاقة تلك القصص الوثيقة بواقعها، من جهة ثانية، إذ يخدم العجيب السرد وينمّي التماطل ويحدِثُ التوتّر، لذلك فهو يساعد –بفضل الغرابة التي تطبعه– على تعويض الرّتابة التي تطبع السرد، ففي "حال قدّر للتطهير أن يتحقق نتيجة للتذوق الفني الجمالي، فإنّه يُحدثُ شعورا بالرّاحة النفسية وبشيء من الرضا أو باللذة"، حيث يأتي العجيب للتشويق والترويح عن المتلقي، إذ يتدخّل في تطوير الحكاية، ذلك أنّ "العجيب يتسرّب إلى النفس حينما يحوم في أفق غير محتمل من التوقعات"، إنّه يعطي للحكي جاذبية واستمرارا وذلك لتحقيق اللذة، لذة يحقّقها القارئ من هذه الرّحلة الشيّقة بين ثنايا السرد، "لذّة في النص ليس كمثلها لذّة، إذا شعرت بها نسيت النصّ والتنظير للنصّ والتاريخ وواقع الأحداث ومن كتب النص."

- **قائمة المصادر والمراجع:**

1. ـ تزفتان تودوروف: مدخل إلى الأدب العجائبي ، تر: الصديق بوعلام ، تقديم: محمد برادة ، دار الكلام، الرباط، المغرب، د/ط ، د/ت.
2. ـ أحمد السماوي، فن السرد في قصص طه حسين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صفاقص، تونس، ط1، 2002.
3. ـ إدريس الناقوري: الواقعية الرمزية في القصة المغربية، ضمن كتاب دراسات في القصة العربية (وقاع ندوة مكناس)، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت/ لبنان، ط1، 1986.
4. ـ الميداني: مجمع الأمثال، ج1، دار مكتبة الحياة، بيروت، د/ط، د/ت.
5. ـ عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ج1.
6. ـ محمد أركون، توفيق فهد، جاك لوكوف: العجيب والغريب في إسلام العصر الوسيط، ترجمة وتقديم: عبد الجليل بن محمد الأزدي، مطبعة النجاح الجديدة، 2002، الدار البيضاء، المغرب، ط1.
7. ـ وحيد السعفي: العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، تبر الزمان، تونس، د/ط، 2001.
8. شعيب حليفي: شعرية الرواية الفانتاستيكية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1، 2009.
9. محمد مداور: التراث في نثر مصطفى صادق الرافعي، دراسة في التفاعل النصي، مخطوط رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر2، 2017/ 2018.